كَيْفَ صَوَّرَ الحُجَّاجُ الأُورِّيُّون مَوْقِفَ المُسْلِمِينَ مِنْ رِحْلَاتِ حَجِّهِم إِلَى الشَّرْقِ فِي العُصُورِ الوُسْطَى؟ (١)

أحمد معروف

namacenter
namacenter
namacenter
info@nama-center.co

نماء

مركز نماء للبحوث والدراسات
Nama Center for Research and Studies
نماء وانتماء

www.nama-center.com
الآراء الواردة في الورقة لا تعبر بالضرورة عن رأي المركز

كَيْفَ صَوَّرَ الحُجَّاجُ الأُورُبِّيُّون مَوْقِفَ المُسْلِمِينَ مِنْ رِحْلَاتِ حَجِّهِم إِلَى الشَّرْقِ فِي العُصُورِ الوُسْطَى؟ (1)

أحمد معروف

تستَمِد هذه الدراسة خصوصيتَها من محاولتها الالتزام بحُدود ما هو نسبي، وعدم تجاوُزه إلى فضاء المُطلق الرحب؛ بمعنى تَنْحية الخطاب الذي يستهدف الكشف عن سيرورة حركة الحج الأوربي إلى الشرق؛ وبخاصة ما يتصل بموقف المسلمين من تلك الحركة، والوقوف -في المقابل- على/عند عَرْض منظور الحُجَّاج أنفسهم لهذا الموقف؛ ذلك المنظور الذي يشكِّل حقيقتَه المستقلة ضمن منظومة النسبي التي تؤطره وسُلطة النص التي تحكمه؛ فيعلو بذلك -في مراتب الموضوعية/اليقين- على تمثُّلات الحقيقة المطلقة بما تفرضه من اجتهادات ذاتية لا تنفك -مهما بلغ التجرُّد- عن خلفيَّات أصحابها.

بَيْد أن هذا لا يعني تغييب شخصية الباحث تمامًا، ذلك الذي يتوجَّه إلى النص بُغية تحليله وربما التعليق عليه؛ الأمر الذي يتجلَّى في مواضع بعينها ووفق آليات محددة؛ في سبيل صَوْن مركزية النص بوصفه الهدف من وراء الدراسة التي تنطلق منه لتعود إليه، وتَحصُر ما سواه في مجال خدمته، بعيدًا عن طموح تقديم تصوُّر لحقيقة ما وقع بالفعل.

ومن هنا فلئن عمدت الدراسة إلى استخدام منهج تحليل المحتوى، فقد فرض موضوعُها حضورًا للنسق الكرنولوجي؛ مراعاة لدور الأوضاع السياسية المتغيِّرة عبر الزمن في تقديم تفسيرات مُقنعة لما ورد بالنصوص. وعلى صعيد المُحدِّدات بدأت الدراسة بظهور المسلمين على مسرح التاريخ في القرن الأول الهجري/السابع الميلادي، وامتدت إلى نهاية القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي؛ حين استطاع المسلمون طرد الصليبيين (الفرنجة) نهائيًّا من الشرق، ومن ثم تفكيك حالة التَّمَاس التي كانت قائمة بين الذات والآخر في بعض من بلدان المنطقة؛ تلك المنطقة التي مثَّلت هدفًا مهمًا للحجاج المسيحيين آنذاك؛

نظـرًا لارتباطهـا بالأحـداث الـواردة بالكتـاب المقـدس والتاريـخ المسـيحي المبكـر؛ لا سـيما الأرض المقدسـة بفلسـطين ومـا حولهـا مـن البـلاد الشـامية مـن جهـة، وأحيانًـا شـبه جزيـرة سـيناء وبعـض المـدن المِصريَّـة مـن جهـة أخـرى. وعـلى مسـتوى عيِّنـة الدراسـة فإنهـا انحـصرت في تنـاوُل النصـوص التـي كتبهـا أو أملاهـا الحُجَّـاج الأوربيـون بغـرض تجسـيد تجاربهـم في أثنـاء رحـلات حجِّهـم إلى الـشرق في الزمـن المذكـور، مـع الاقتصـار عـلى فئـة اللاتـين الكاثوليـك فيـما يتصـل بهُويـة هـؤلاء الحجـاج؛ إذ هـي الفئـة التـي مثلـت القـوام الرئيـس لسـكان أوربـا في العصـور الوسـطى.

وعـلى مـدار القـرون السـبعة التـي تمثِّـل زمـن الدراسـة، مـرَّت الأرض المقدسـة بثـلاث مراحـل رئيسـة مـن حيـث القـوة الحاكمـة لهـا؛ الأمـر الـذي انعكـس عـلى مُلابسـات رحـلات الحُجَّـاج الأوربيـين في كل مرحلـة؛ بمـا في ذلـك مواقـف المسـلمين منهـم؛ وقـد وضـح هـذا فيـما خلفـوه مـن نصـوص رحليَّـة.

المرحلـة الأولى: مـا بـين القرنـين الأول والخامـس الهجريين/السـابع والحـادي عـشر الميلاديـين:

(الأرض المقدسـة تحت حكم المسلمين)

عـلى الرغـم مـن أن الحـجَّ ليـس فريضـة واجبـة في الديانـة المسـيحية، فقـد نتـج مـن مركزيـة حضـور الأرض المقدسـة في تلـك الديانـة، قـوَّةٌ رُوحيـة جذبـت أتباعهـا عـلى نحـو مُتصاعِـد بمـرور الزمـن؛ لاسـيما منـذ جـرى الاعـتراف بهـا ديانـةً رسـميَّةً في الإمبراطوريـة الرومانيـة سـنة ٣١٣م[١].

ومـع التوسُّـع الإسـلامي الـذي جـرى عـبر الفتوحـات، وخضـوع الأرض المقدسـة

(١) إبراهيم سعيد فهيم محمود: حركة الحج الأوربي إلى الأماكن المقدسة في الشرق الأدنى الإسلامي (١٢٩١- ١٥١٧م/٦٩٠- ٩٢٣هـ)، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ٢٠١١، جـ١، ص٨٢، ٨٣؛ محمد مؤنس عوض: الرحالة الأوربيون في مملكة بيت المقدس الصليبية ١٠٩٩-١١٨٧م، مكتبة مدبولي، ط١، القاهرة، ١٩٩٢م، ص ١٧

Dyas, D., Pilgrimage in Medieval English Literature 700- 1500, Cambridge, 2001, pp. 64- 66.

لحُكْم المسلمين، لم يتوقَّف الحُجَّاج الأوربيون عن زيارة تلكم البقاع، وكان في طليعتهم أسقف فرنسي عُرِف باسم «أركولف» Arculf؛ ذلك الذي ارتحل حاجًا إلى الشرق سنة ٥٠هـ/٦٧٠م أي في زمن الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان (٤١- ٦٠هـ/٦٦١- ٦٨٠م)، ولكن على الرغم من زيارته عدة مدن كانت قد خضعت لسُلطة المسلمين آنذاك؛ مثل القدس والخليل ودمشق وغيرها، بل إنه مكث في القدس وحدها تسعة أشهر يزور المقدسات ويقيس أبعاد بعضها[٢]= على الرغم من هذا إلَّا أن نص رحلته الذي أملاه لم يسجِّل ما يمكن أن يُعَد موقفًا للمسلمين من رحلة حجه، وإن ورد ذكرهم في سياقات أخرى؛ ولعل هذا يرجع إلى تركيزه على ذِكْر تفاصيل تخُص المقدسات المسيحية الواقعة في الشرق؛ في ظل وعيه بأنه يقدِّم أول وصف لهذه المقدسات بعد ما حدث من الغزو الفارسي ثم الفتح الإسلامي للمنطقة. أو ربما نَعِم بحرية الحركة بين المسلمين، تأسيسًا على إيمانهم بفرضية الحج في دينهم أو انطلاقًا من عدم استقرار مؤسساتهم الإدارية بعد. غير أن المؤكَّد -في ضوء ما ورد برحلة الحج- أن هناك من الأوربيين مَن كان يقيم في الأرض المقدسة، مُتمتعًا بحرية الحركة؛ ينطبق هذا على رجل من إقليم برجندي (في فرنسا) يدعى «بيتر» كان قد استقر ناسكًا في فلسطين منذ زمن طويل، وقد عمل مرشدًا للحاج «أركولف» هناك[٣]؛ الأمر الذي يدعم الفرضية الثانية (حرية الحركة) من دون أن ينفي تمامًا صحة الأولى (التركيز على المُقدسات).

ومع التوجُّه العسكري للمسلمين نحو أوربا ممثَّلة في الأندلس؛ الأمر الذي افتتح سلسلة من حلقات الصراع/العداء بينهم وبين الكاثوليك اللاتين، وفي

(2)(Adamnan) Arculf, The Pilgrimage of Arculf in The Holy Land, translated and annotated by: Macpherson, J. R., London, 1889, pp. 3, 4, 21.

(3)Ibid., p. 45.

ظل استقرار المؤسسات الإدارية في العالم الإسلامي لا سيما في أقاليم المركز (مثل الشام حاضرة الأمويين)، انطلق من إنجلترا -بهدف الحج إلى الأرض المقدسة- ذلك الشابُّ الذي صار فيما بعد أسقفًا، والذي عرف باسم «ويليبالد» Willibald؛ والذي كان بصحبته جماعة من الحجاج المُرافقين، والذي جرت فعاليات رحلة حجه في النصف الأول من القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي[٤]، فزار فلسطين، وبعض مدن الساحل الشامي الأخرى، بالإضافة إلى دمشق، وقد عَرَض نصُّ رحلته الذي أملاه مواقف تفصيلية اتخذها المسلمون من رحلة حجه.

لقد أبحر -ومَن معه- مِن قبرص إلى طرطوس الشامية معلنًا أنه دخل بلاد المسلمين Saracens[٥]، ومن هناك على الأقدام سار إلى عِرقة، قبل النزول بمدينة حِمْص؛ حيث ظهرت السلطات الإسلامية في تلك الحاضرة الشامية الكبرى؛ إذ ألقت القبض على «ويليبالد» وجماعة الحُجاج؛ ذلك أنهم كانوا غرباء اللغة واللباس، ينتمون إلى أمة لم يكن للمسلمين بها عهد؛ الأمر الذي دفع بهم إلى موضع الارتياب؛ إذ ظن المسلمون أنهم بإزاء جواسيس؛ فاقتادوهم أسرى. وبينما كانوا يُساقون إلى السجن، لقيهم رجل مُسن وثري فسألهم عن هُويتهم وبلادهم وهدفهم من المجيء، فعلم منهم الوجه الصحيح لهذا كله. حينئذٍ أخبر رجالَ السُّلطة بأنه رأى كثيرين وفدوا من هذه البقاع من العالم لأداء شعائر دينية، مُؤكِّدًا أنهم لا يستهدفون شرًّا، إلا أن شهادته لم تغنِ عنهم من الحَبْس شيئًا[٦]. وفي هذا -بافتراض صحته- ما يشير إلى استمرار مجيء الحجاج

(٤) ذكر النص أن رحلة "ويليبالد" استمرت عشر سنوات منذ انطلق صاحبها من إنجلترا حتى عاد إلى روما، وهناك ذهب إلى البابا جريجوري الثالث (١١٢- ١٢٣هـ / ٧٣١- ٧٤١م).

Willibald, The Hodoeporicon of Willibald, translated by: Brownlow, London, 1891, p. 31.

وهذا يحصر تاريخ الرحلة بين عشرينيات وثلاثينيات القرن الثامن الميلادي، وهي المدة التي شهدت عهدي يزيد بن عبد الملك (١٠١- ١٠٥هـ / ٧٢٠- ٧٢٤م) وهشام بن عبد الملك (١٠٥- ١٢٥هـ / ٧٢٤- ٧٤٣م)، وهو بذلك إما بدأ رحلته في الشرق زمن الأول وأنهاها زمن الثاني، أو وافقت الرحلة كلها زمن حكم هشام.

(5)Ibid., p. 15.

(6)Ibid., p. 13.

الأوربيين إلى الشرق، وإن لم يمثِّل مجيئهم هذا ظاهرة تسترعي انتباه الكافة.

ثم جيء بهم إلى قصر حاكم governor المدينة الذي أكَّد الظن بأنهم جواسيس، وأمَر بهم فأودعوا السجن ريثما يبت في شأنهم. وفي أثناء حَبْسهم عَرَض أحد التجار افتداءهم بالمال، فلما خاب مسعاه طفق يوافيهم بالطعام في كل يوم، أما في يومي الأحد والأربعاء من كل أسبوع فكان يرسل ابنه ليصحبهم إلى الحمام، ثم يُعيدهم مرَّة أخرى إلى محبسهم، كما أنه كان يأخذهم يوم الأحد إلى الكنيسة مرورًا بالسوق؛ حيث كان يبتاع لهم كل ما يحتاجون إليه من ماله الخاص، حينئذ كان سكان المناطق المجاورة يتحلَّقون حولهم ويَرْنُون في دهشة؛ فقد كانوا شبابًا يتمتعون بالوسامة وينعمون بحسن الهندام. وبينما أرجع النص ما يحدث إلى رحمة الرب الذي أفاء عليهم بهذا التاجر(تفسير غيبي)[٧]، فليس ثمة تفسير واضح لما أقدم عليه الأخير من صنيع إن كان مسلمًا، ولا لما حظي به من النفوذ إن كان من المسيحيين الشرقيين أو الغربيين. ومن ناحية أخرى فمع افتراض المُعاملة الحَسَنة التي تلقَّاها الحُجاج من طرف المسلمين، إلا أنه يبقى من الصعب -بمعزل عن الاتهام بالمبالغة- تصوُّر هذه الهيئة الرائقة التي كان السجناء عليها، وإن اعتادوا الذهاب إلى الحمام مرتين في كل أسبوع.

ثم كان أن قدِم رجل من إسبانيا فتوجَّه إليهم بحديث أبدى لهم فيه التبجيل والاحترام، وسألهم عن هُويتهم وهدفهم من المجيء فأخبروه بكل شيء، وكان لهذا الرجل أخٌ يعمل حاجبًا لدى مَلِك المسلمين the king of the Saracens (الخليفة)، فطلب إليه أن يخبر سيده بالأمر على وجهه الصحيح؛ فلما علم الملك -الذي كان يدعى «أمير المؤمنين» Mirmummi- أن هؤلاء حجاج جاءوا من الشواطئ الغربية للعالم حيث تغرب الشمس؛ وحيث لا توجد أرض

(7)Ibid., p. 14.

وراء بلادهم سوى ما كان من المياه فحسب= عندئذٍ تعجَّب من حبسهم إذ لم يقترفوا ما يوجِبه عليهم، وأمر بإطلاق سراحهم كما أعفاهم من الأموال التي كان يتعيَّن عليهم دفعها[٨].

والحق أن النص هنا يثير من الأسئلة ربما أكثر مما يقدم من المعلومات؛ فهل كان الرجل الإسباني (لعله أندلسي) مبعوثًا من جانب السلطات الإسلامية للنظر في أمر هؤلاء السجناء؟ ولكن لو صح هذا فلماذا لجأ إلى وساطة أخيه حاجب أمير المؤمنين؟ وما دور حاكم حمص في هذا كله؟

ومع التسامح الذي ظهر عليه الحاكم الأعلى للمسلمين، فإن الملاحَظ أن النص يورد محنة صاحبه إيرادًا محايدًا دون إنكار على مَن ألقى القبض وحَبس أو ثناء على من استوعب الدوافع وأطلق.

وفي نهاية الرحلة، تظهر ثلاثة من الإجراءات التنظيمية التي كانت السلطات الإسلامية تتخذها في إطار الإشراف على عودة الحُجَّاج إلى بلادهم (ربما تنطبق على المسافرين الأجانب عمومًا)؛ كان أول هذه الإجراءات: الحصول على تصاريح بالمغادرة؛ حيث توجَّه رفقاء «ويليبالد» إلى دمشق طمعًا في استخراج هذه التصاريح؛ عندئذٍ وفدوا على ملك المسلمين المدعو أمير المؤمنين، لكنه كان قد غادر مُستقرَّه؛ هربًا من طاعون عمَّ البلاد في ذلك الإبَّان، فعادوا إلى حمص وطلبوا إلى حاكمها أن يمنحهم التصاريح، فأعطاهم إياها؛ إذ إن في غيابها ما يؤجِّل السفر؛ فقد كان الحُرَّاس المسلمون المُسيطرون على الساحل الشامي كله، يقتادون إلى مدينة صور أولئك الذين يفتقدون تلك التصاريح[٩] (ربما كانت صور هي المركز الساحلي المختص باستخراج هذه التصاريح بالإضافة إلى الحواضر الداخلية الرئيسة).

(8)Ibid., p. 15.

(9)Ibid., pp. 25- 26.

وقد نهى حاكم حمص عن رحيل الحُجَّاج معًا، مُشترِطًا أن يسافروا على دفعات، تنطوي كلٌّ منها على حاجَّيْن اثنين فحسب؛ وذلك لتيسير الحصول على الطعام والمؤن في أثناء العودة، وهنا يظهر الإجراء الثاني وهو إمداد الحُجَّاج بهذه الأمور المُعينة على السفر. ثم يأتي الإجراء الثالث متمثلًا في خضوع هؤلاء المسافرين للتفتيش؛ وذلك لضمان عدم تهريب طائفة من السلع محددة. وكان «ويليبالد» قد اشترى كميَّة من البلسم -ولعله كان من جُملة تلك المحظورات- ثم وضع فوقه شيئًا من النفط، بعدما دسَّه في أمتعته؛ فأخفى بذلك رائحته وخدع الحُرَّاس الذين سمحوا له بالرحيل، مؤكِّدًا أن في افتضاح أمره (لو حدث) لقاءه لحتفه (من دون شك)[١٠].

ومع أن بعض ممثلي السُّلطة الإسلامية قد تعرَّضوا للخداع، إلا أن النص يعكس حالة من الاستنفار الأمني الواقع على الحدود (ربما بسبب العلاقات المتوترة بين الأمويين والبيزنطيين آنذاك)، ولكن بعيدًا عن الحدود يلاحَظ أنه لم يرد شيء بخصوص موقف المسلمين من ملابسات زيارة المقدسات المسيحية نفسها، فعلى طول المُدَّة التي مكثها «ويليبالد» في بلاد المسلمين (عدة سنوات) وعلى كثرة المدن التي زارها (بل إنه زار بعضها -مثل القدس- عدة مرات)، إلا أنه لم يسجِّل أي حضور للمسلمين في هذا الصدد؛ الأمر الذي يرجِّح أنهم عاملوه -ومن معه- بوصفهم مُستأمَنين يتنقلون في حرية داخل البلاد الإسلامية دون أن يمسسهم سوء، ولو حدث خلاف ذلك لبادر النص إلى ذكره جريًا على منهجه الذي انتهجه في هذا الشأن.

وفي ظل التحسُّن النسبي الذي طرأ على الأوضاع السياسية في أوربا برعاية الإمبراطورية الكارولنجية زمن الإمبراطور الفرنجي شارلمان (١٥٠- ١٩٨هـ/٧٦٨-٨١٤م)، وتأسيسًا على العلاقات الطيبة التي جمعت الأخير بالخليفة العباسي

(10)Ibid., pp. 27- 28.

هـارون الرشـيد (١٧٠- ١٩٣هـ/٧٨٦- ٨٠٩م)، فقـد نشـطت رحـلات الحـج الأوربي إلى فلسـطين، كـما أُنشـئت العديـد مـن الكنائـس والأديـرة والنُـزُل التـي كانـت تسـتقبل الحجـاج، تلـك التـي تـدل كثرتهـا عـلى كـثرة مـن اعتـاد ارتيادهـا مـن الأوربيـين آنـذاك، برغـم الأخطـار التـي واجهوهـا مـن قراصنـة البحـر ولصـوص الـبر، بجانـب سـوء المنـاخ أحيانًـا[١١]. غـير أن أيًّـا مـن هـذه الكـثرة لم يـترك أثـرًا مكتوبًـا يصـف مـن خلالـه تجربـة ارتحالـه حاجًّـا، باسـتثناء مـا دوَّنـه رجـل الديـن الكاثوليـكي «برنـارد» Bernard الملقَّـب بالحكيـم؛ ذلـك أنـه قـام برحلـة حـج سـنة ٢٥٦هـ/٨٧٠م بصحبـة اثنـين مـن الرُّفقـاء[١٢].

يبـدأ احتـكاك «برنـارد» بالسـلطات الإسـلامية في أوربـا نفسـها؛ حيـث كان المسـلمون قـد كوَّنـوا إمـارة لهـم اسـتقرت في مدينـة بـاري الواقعـة جنـوب إيطاليـا، وقـد اسـتمرت هـذه الإمـارة مـدة ثلاثـة عقـود تقريبًـا منـذ سـنة ٢٢٧هـ/٨٤١م[١٣]. ومـن هنـا توجهـت جماعـة الحُجَّـاج إلى سـيد تلـك المدينـة the chief man المدعـو سـلطان Suldanus؛ وذلـك طلبًـا لتصريـح يسـمح لهـم بالذهـاب إلى حُـكَّام الإسـكندرية وبابليـون (الفسـطاط أو بالأحـرى القطائـع) اعتـمادًا عـلى أنهـم يخضعـون لأمـير المؤمنـين Amarmominus الـذي يحكـم المسـلمين Saracens جميعًـا، والـذي يعيـش في مدينـة تقـع وراء القـدس تعـرف باسـم بغـداد Bagdad.

ويبـدو أن «برنـارد» ومـن معـه قـد حصلـوا عـلى التصريـح مـن دون عنـاء؛ إذ أبحـروا مـن فورهـم إلى الإسـكندرية، وهنـاك وعـلى الرغـم مـن اعـتراف سـيد

(١١) إبراهيم سعيد: السابق، جـ١، ص ١٠٣- ١٠٦؛ محمد مؤنس عوض: السابق، ص ٢١، ٢٢.

Runciman S., The Pilgrimages to Palestine before 1095, in A History of The Crusades, edited by: Setton K. M., Baldwin M. W., The University of Wisconsin Press, Madison- Milwaukee- London. 1969, vol. 1, p. 72.

(12)Bernard the Wise, The Itinerary of Bernard the Wise, translated by: Bernard J., London, 1893, p. 3.

(13) عـن الوجـود الإسـلامي في إيطاليـا انظـر: إبراهيـم عـلي طرخـان: المسـلمون في أوربـا في العصـور الوسـطى، مؤسسـة سـجل العـرب، 1966م، ص56، ومـا بعدهـا.

المدينة chief man بمحتوى خطاب سلطان المذكور، إلا أنه لم يعتد به، بل أرغم الحجاج على دفع ثلاثمائة دينار denarii ثم تركهم يمضون محمَّلين بخطاب من قِبَله إلى سيِّد بابليون chief man.

فلمَّا بلغوا بابليون ساقهم حُرَّاس المدينة نحو سيدها، وهو رجل مسلم يدعى Adelacham! وحين دخلوا عليه سألهم عن سبب الزيارة وعما في جعبتهم من تصاريح منحهم إياها الأمراء princes الآخرون. عندئذٍ أبرزوا له خطابي سلطان وسيد الإسكندرية، بَيْد أن أيًّا من الخطابين لم يُجْدِ نفعًا، فزُجَّ بهم في السجن. وهناك مكث «برنارد» ورفيقاه ستة أيام، حتى افتدى كلٌّ منهم نفسه بثلاثمائة دينار؛ الأمر الذي أفضى إلى منحهم التصاريح المطلوبة، تلك التي ذكر النص أنها منعت السلطات من التعرُّض لهم في أي مكان طوال الرحلة؛ معللًا هذا بأن مانح هذه التصاريح هو الرجل الثاني في الإمبراطورية empire بعد أمير المؤمنين، مستثنيًا دفعهم دينارًا أو دينارين للحصول على تصريح بالمغادرة بعد انقضاء الرحلة، وهو تصريح آخر ضروري من أجل العودة إلى بلادهم(١٤).

وفي هذا كله ما يكشف عن استمرار حِرْص السلطات الإسلامية على النواحي الأمنية؛ حذرًا من الجواسيس وشكًّا في الغرباء، برغم تعدُّد الحكَّام المسلمين بتعدد الكيانات السياسية الإسلامية التي وإن بلغت أوربا، إلا أنها تكوَّنت في ظل انقسام دولة الخلافة وانحسار سلطتها على الأقاليم واقتصار تلك السلطة على مُجرَّد تبعية اسمية، وهو ما لم يدركه الرحالة الذي توهَّم أن أمير المؤمنين -الذي يعيش في بغداد- يحكم المسلمين كافة؛ ومن ثم ظن أن حصوله على التصريح من الحاكم المسلم لمدينة باري الإيطالية كفيل بضمان حرية التحرُّك في البلاد الإسلامية جميعها، بَيْد أنه فوجئ برفض السلطات

(14)Bernard the Wise, op. cit., pp. 4- 6.

المصرية (زمن أحمد بن طولون: ٢٥٤- ٢٧٠هـ/٨٦٨- ٨٨٤م) لهذا التصريح؛ مما حتَّم ضرورة استصدار غيره.

كما يفسِّر هذا الانقسامُ تغيُّرَ مسار رحلات الحج التي صارت تتوجه إلى مصر ثم الشام بعد أن كانت تقصد الإقليم الأخير مباشرة؛ ولعل هذا يعود إلى وجود نوع من النفوذ المصري هناك؛ الأمر الذي تجلى في نظرة «برنارد» إلى حاكم مصر بوصفه الرجل الثاني بين المسلمين تأسيسًا على رؤيته الكلية للعالم الإسلامي، لكن على الرغم من أن بلاد الشام لم تكن قد خضعت للطولونيين زمن تلكم الرحلة بعد، إلا أن وجود النفوذ المصري هناك يدعمه نفاذ التصريح الطولوني في المدن الشامية؛ ففيما بين بداية الرحلة ونهايتها تحرَّك الحجاج بحرية في جميع ما وفدوا عليه من البلدان؛ حيث مكثوا عدة أشهر زاروا فيها كلًّا من دمياط، وتنيس، والفرما حيث اكتروا الجمال من السكان المحليين؛ لأجل حمل أمتعتهم في الصحراء، تلك التي أقيم بها نُزلان للمسافرين عمومًا، حتى إذا بلغوا مدينة غزة توجهوا منها إلى القدس التي أقاموا بها داخل نُزُل «شارلمان» بصحبة عدد كبير من الحجاج الأوربيين، ثم كان أن زاروا بيت لحم ونهر الأردن وبعض المدن الفلسطينية الأخرى. وفي هذا الإطار يقدِّم «برنارد» إشادة بحالة الأمن التي نَعِم بها المسافر بين البلدان الإسلامية، مادام بحوزته التصاريح المطلوبة، مؤكدًا أن غيابها يودي بالمسافر إلى السجن، ريثما يخضع للتحقيق[١٥].

غير أن النص يكشف عن مركزية المال في الموقف الإسلامي من الحُجَّاج؛ إذ حل محل التسامح الأموي الذي كان سبيلًا لإطلاق سراح السجناء من الحُجَّاج الأوربيين في السابق، مع الالتفات إلى اختلاف درجة وعي السلطات الإسلامية

(15)Ibid., pp. 5- 11.

بحركة الحج المسيحي في ضوء ما ورد ذِكْره، فعلى حين كان الأمويون -في الأغلب- يجهلون مقصد هؤلاء الغرباء، كان الطولونيون على علم به، لكنهم اشترطوا المال مقابل التصاريح، وتتعزز مركزية المال بالنظر إلى طَلَبه من قِبَل حاكمي الإسكندرية وبابليون معًا برغم كونهما يمثلان الإطار السياسي نفسه؛ الأمر الذي لا يبدو منطبقًا على السلطات الإسلامية في باري التي كانت -بحكم الجوار- أكثر احتكاكًا بالأوربيين.

ومهما يكن من أمر فإن النبرة المحايدة التي استخدمها «برنارد» في سَرْد الأحداث لتسجِّل حضورًا لنصوص أوربية لا تنطلق من فكرة الدعاية ضد المسلمين، وهي الفكرة التي لعبت دورًا بارزًا في بلورة جانب من دوافع الأوربيين نحو شَنِّ ما عرف تاريخيًّا بالحروب الصليبية، وذلك تأسيسًا على تجارب طائفة من الحُجَّاج في الشرق، لكنهم حُجَّاج مختلفون!

فعلى مدار القرون التالية، وفي ظل احتدام الصراع الإسلامي اللاتيني حول البحر المتوسط، وبالتوازي مع تصدُّر المسلمين لقائمة أعداء العالم الكاثوليكي بعد أن كانوا مجرد عنصر فيها= حدث أن توالى الحُجَّاج على زيارة مدن الشرق، وزادت أعدادهم لتبلغ الآلاف معًا، وتنوعت طبقاتهم وبلدانهم، الأمر الذي بلغ ذروته في القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي في ظل تطوُّر الأسس النظرية للحج المسيحي وتصاعُد أهميته في الثقافة الأوربية؛ ليسهم في بلورة معرفةٍ ما بالإسلام والمسلمين، ثم في تكوين تصوُّر سلبي بناء على تلك المعرفة ليغذِّي روح العداء المتصاعدة، فيظهر المسلمون بمظهر المضيِّق على الحجاج، وذلك على نحو فاق كثيرًا بعض الصعوبات التي واجهوها بالفعل على يد قُطاع طرق أو من خلال توجُّه بعض من الحُكَّام (مثل الأتراك السلاجقة في إطار حروبهم ضد بيزنطة). ومن هنا صار المجتمع الأوربي مهيأ لتقبُّل

فكرة الحج المُسلَّح أو عَسْكرة الحج، وهي الفكرة التي أفرزت بدورها مفهوم الحروب الصليبية؛ حيث توطَّد لدى الأوربيين نموذج يمكن احتذاؤه للدخول إلى الأرض المقدسة؛ وذلك من أجل مواجهة هؤلاء الأعداء؛ لتكتسب كلمة «حاج» دلالات مُركَّبة تمزج الحربي بالسلمي في بعض الأحيان (المُقاتل الصليبي/المبشِّر بالمسيحية/زائر المقدسات)، مثلما تُفرِّق بينهما أحيانًا أخرى[١٦].

ومن اللافت للنظر أن آخر النصوص المكتوبة -في تلك المرحلة- يعود إلى الرحالة «برنارد»؛ أي يعود إلى النصف الأول من القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، في حين تبلورت تلك الصورة المعادية في القرون التالية اعتمادًا على روايات شفهيَّة لأعداد ضخمة من الحجاج مُزِجَت بالأساطير الدعائيَّة وعرفت طريقها إلى كتابات المؤرخين ومقالات المحرِّضين على الحروب الصليبية.

المرحلة الثانية: القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي:

(الأرض المقدسة تحت حكم الأوربيين)

في نهاية القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي قام الأوربيون (اللاتين/الكاثوليك) بشن حملتهم الصليبية الأولى على الشرق الإسلامي؛ تلك الحملة التي تمخَّض عنها استيطان أوربي في الأرض المقدسة بفلسطين بجانب بعض الأقاليم المحيطة في الشام والجزيرة الفراتية؛ ومن ثم صار الحُجَّاج الأوربيون

(١٦) يظهر هذا من خلال استقراء مجموعة من النصوص التأريخية التي يخرج معظمها عن نطاق هذه الدراسة. لمزيد من التفاصيل عن الحج المسيحي إلى الشرق، وتطوره في الذهنية الأوربية؛ وصولا إلى فكرة الحروب الصليبية انظر: إبراهيم سعيد: السابق، جـ١، ص٨١، وما بعدها؛ قاسم عبده قاسم: الخلفية الإيديولوجية للحروب الصليبية، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط١، ١٩٩٩م، ص٢٧، وما بعدها؛ ميشيل بالار: الحملات الصليبية والشرق اللاتيني من القرن الحادي عشر إلى القرن الرابع عشر، ترجمة: بشير السباعي، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط١، ٢٠٠٣م، ص٣٥- ٣٧، ٢٨٤، ٣٦٥- ٣٦٨.
Runciman, op. cit., pp. 68 ff; Webb D., Pilgrims and Pilgrimage in The Medieval West, Tauris, London- New York, 2001, pp. 16, 25- 27, 51ff.

يفـدون إلى أرض خاضعـة لحكـم الـذات بعـد أن كانـت مـن مُمتلـكات الآخـر.

ومـع هـذا فلـم تغِـب الروايـات التـي تعكـس منطـق الدعايـة ضـد المسـلمين؛ فهـذا «تيودريـك» Theodric -الأسـقف الألمـاني الـذي توجَّـه حاجًّـا إلى الأرض المقدسـة في تاريـخ يمكـن حـصره بـين عامـي (٥٦٦- ٥٦٩هـ/١١٧١- ١١٧٤م)- ينقـل روايـة يرجِّـح أنهـا تتحـدث عـمَّا كان يجـري في القـرن الأخـير مـن المرحلـة السـابقة مـن وجهـة النظـر الأوربيـة؛ ففـي سـياق حديثـه عـن بَيْعـة للمسـيحيين تقـع غـرب القـدس أشـار إلى كهـف عميـق جـدًا يقـع تحـت الأرض، ويحـوي مـا لا يُحـصى مـن أجسـاد الحجَّـاج المدفونـين هنـاك؛ لقـد جـاءوا في إحـدى السـنوات إلى المدينـة المقدسـة في أعـداد كبـيرة للصـلاة كالمعتـاد، فوجـدوا المدينـة مليئـة بالمسـلمين! أولئـك الذيـن حالـوا بينهـم وبـين دخولهـا، ولمَّـا لم يكـن بمقدورهـم الولـوج إليهـا فقـد فرضـوا عليهـا بمـن فيهـا الحصـار، غـير أنهـم لم يمتلكـوا مـا يكفـي مـن طعـام وسـلاح لإنجـاز تلـك المهمـة الشـاقة؛ فتملَّكهـم حينئـذ عُـسْر عظيـم في ظـل حاجتهـم الشـديدة إلى المُـؤن، وحـين رأى المسـلمون ألَّا قِبَـل لمُحاصريهـم بالمقاومـة انقضـوا عليهـم فجـأة مـن داخـل المدينـة، وجعلوهـم جميعًـا -عـلى كثرتهـم- طُعمـة للسـيوف، وحـين عزمـوا عـلى إحـراق الجِيَـف بعدمـا تصاعـدت منهـا الروائـح النتنـة، أرسـل الـرب أسـدًا ليرمـي الجثـث كافـة في ذلـك الكهـف المشـار إليـه، ثـم أضـاف النـص مـا يفيـد حَمْـل الأسـد تلـك الجثـث إلى السـفن التـي تكفَّلـت بنقلهـا إلى أوطانهـا طوعًـا عـلى نحـو تلقـائي[١٧].

وبرغـم وجـود أصـل للروايـة[١٨]، إلا أن مُعطيـات التشـكيك فيهـا ليسـت بحاجـة

(17)Theoderich, Theoderich's Description of the Holy Places, translated by: Stewart A., London, 1891 pp. 55- 56 .

(١٨) ورد أن رحلـة الحـج الألمانيـة الكـبرى (٤٥٦- ٤٥٧هـ/١٠٦٤- ١٠٦٥م) شـهدت هجـوم العـرب -سـكان البـلاد- عـلى الحجـاج طمعـا في الغنائـم، ولمـا لم يكـن الحجـاج مسـلحين فقـد لاذوا بالفـرار، وبرغـم هـذا فقـد قتـل منهـم كثـيرون، وفقـدوا أمتعتهـم، ثـم

إلى فضل بيان؛ فمن الطابع الأسطوري المُهيمِن عليها، إلى التناقض الداخلي المتمثِّل في وجود الجُثث في الكهف أمام الحجاج برغم نقلها بفِعْل الأسد إلى أوربا بعد مصرع أصحابها مباشرة، ثم كيف تحاصر الأقليَّة الوافدة سكانَ البلاد وحُكَّامها ولو ساعة واحدة ؟! (ولولا نقص المؤن لاستمر الحصار!!)، ثم هناك تساؤل آخر حول انحصار دور الأسد في نقل جثث الموتى؛ فإذا كان ذلك كذلك فأليس من باب أَوْلى أن يحُول الأسد دون موتهم أصلًا؟!، ثم تأتي إشكالية غياب المصدر الأصلي للرواية؛ فعلى فرْض أن الحجاج لقوا جميعًا القتل مصيرًا لهم، فمن ذا الذي روى ما حدث وسجَّل الواقعة؟!!، كما تُرِك الزمن لاستنتاج القارئ؛ فمعنى أن المسلمين كانوا أغلب سكان المدينة المقدسة -وهو ما لم يحدث زمن الصليبيين- أن الحدث سابق للوجود الصليبي بالشام.

وبين هذا كله تكمن إشارة تفيد اعتياد الحجاج اللاتين -في تلك الحقبة- زيارة أماكنهم المقدسة الخاضعة للمسلمين في أعداد كبيرة وعلى نحو دوري؛ مما يُظهِر الحادثة -ربما من حيث لم يَدْرِ مُورِدها- استثناء يؤكِّد القاعدة.

كما وردت هذه الرواية -مع اختلافات طفيفة- في نص أحد حُجَّاج القرن التالي (السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي) ناسبًا الأحداث إلى زمن كسرى الفرس (وليس الحكم الإسلامي)[١٩]؛ الأمر الذي يكشف عن السيولة في التعامل مع الحدث والروايات الناقلة له.

استقروا بإحدى القرى بفلسطين واتخذوا لهم هناك أسلحة وقاوموا أعداءهم ثلاثة أيام حتى هدهم الجوع والعطش، حينئذ عرض العرب تركهم مقابل المال فرفضوا، ثم حدثت نزاعات مطولة أفضت إلى وقوع الحجاج في الأسر، ثم سمع بالأمر ممثل حاكم مصر (الفاطمية) وكان آنئذ بالرملة، فجاء وخلص الحجاج من خطر العربان، وسمح لهم بالحج، وقيل إنه لم يعد من بين سبعة آلاف حاج سوى مائتين. انظر: إبراهيم سعيد: السابق، جـ١، ص١١٠- ١١٤؛ ميشيل بالار: السابق، ص٣٦.
Runciman, op. cit., pp. 75- 76.

(19)Thietmar, Pilgrimage, in Pilgrimage to Jerusalem and The Holy Land 1187- 1291, Pringle, Ashgate, 2011, p. 113
.

وفيما عدا هذا فلم يكن للبلاد الخاضعة للمسلمين حضور يُذكَر في تلك المرحلة بالنظر إلى اكتفاء الحُجَّاج بالمقدسات الواقعة في البلدان الخاضعة لقومهم من اللاتين، في حين تركَّز حضور المسلمين في نسق سلبي بالنسبة للحجاج عبر تشكيل تهديدات لرَكْب الحج؛ الأمر الذي أخذ مظاهر مختلفة.

ففي رحلة حج رجل الدين الإنجليزي المدعُو «سايولف» Saewulf (امتدت رحلته بين عامي ٤٩٥- ٤٩٦هـ/١١٠٢ - ١١٠٣م)= ظهر المسلمون وهم يعمِدون إلى نصب الفخاخ والكمائن لقتل الحجاج المسيحيين على الطريق الحَيَويِّ الرابط بين يافا من ناحية -حيث كان يأتي الحجاج بحرًا- والقدس التي استهدفوا زيارتها بالأساس من ناحية أخرى، وفي هذا مؤشر على وعي المسلمين بأهمية المدينة المقدسة للحجاج المسيحيين، وبتوجه قصدهم إليها بالدرجة الأولى.

وبرغم أنه أكَّد -في نهاية المطاف- وصوله وجماعته كلها دونما أذى (ربما لأنها كانت جماعة كبيرة لم يتخلَّف منها أحد، وإن أرجع «سايولف» الأمر إلى رحمة الرب الذي لم يهمل صلاته وأدعيته)، برغم هذا إلا أنه لا ينفي تكرار الهجمات كثيرًا وعلى نحو مطَّرد؛ مستهدفة -في كل مَرَّة- الجماعات القليلة أو التي كانت تتخلَّف عن الركب طلبًا للراحة تحت وطأة الإرهاق؛ حيث اعتاد المسلمون الاختباء في الكهوف الصخرية ثم الانقضاض على فرائسهم فجأة ثم الاختفاء؛ ومن هنا يبدي «سايولف» أسفه من كثرة الأجساد البشريَّة الملقاة في عرض الطريق أو على جانبيه وقد مزَّقتها الحيوانات الضارية، من غير أن يجرؤ أحد على دفنها؛ ليس فقط لضيق الطريق وصعوبة الحَفْر في الصخور، ولكن بسبب الخوف من ملاقاة المصير نفسه لمن يتخلف عن الركب محاولًا دفن أصحابه، ولعل في هذا ما يعبِّر عن ضعف السيطرة الصليبية على الطرق الرابطة بين المدن التي استولوا عليها في بداية وجودهم بالشرق، بالنظر إلى أن يافا والقدس كانتا تحت الحكم الصليبي آنذاك.

كما لم يَقصُر النصُّ الخطرَ على الأغنياء من الحجاج بل جعله شاملًا الأغنياء والفقراء، الأقوياء والضعفاء على السواء[٢٠]، وربما ينفي هذا -في ظل غَلَبة الحجاج الفقراء[٢١]- حضور الدافع الإجرامي -من مِثل قطع الطريق أو السرقة- لصالح الدافع الجهادي الساعي إلى النَّيْل من الصليبيين الذين مازالت آثار انتهاكاتهم لحُرَم المسلمين ماثلة في الأذهان، وذلك عبر مهاجمة كل ما هو لاتيني بما في ذلك الحجاج[٢٢]؛ خصوصًا في ضوء وعي المسلمين بتقديم هؤلاء الحجاج الدعمَ المادي والبشري للكيان الصليبي الوليد؛ انطلاقًا من التداخل بين مفهوم الحاج ومفهوم الصليبي المقاتل، فإذا كانت نظرة الحجاج إلى الموقف أمنية قوامها الخوف على الحياة، ودينية تنعى على أولئك الذين يهددون قيامهم بأداء شعائرهم، فإن نظرة المسلمين إلى الأمر كانت تدور في فلك المقاومة والجهاد الذي لم يخْلُ بدوره من حضور للدافع الديني.

ولعل هذه الوقائع -وأمثالها- هي ما قصده أحد حُجَّاج القرن التالي، حين روى ما سمعه عن إقدام المسلمين -من قبل- على قتل جماعة من الحجاج غدرًا في إحدى البقاع قُرب مدينة صور[٢٣].

ومن ناحية أخرى فلم تخلُ رحلة عودة «سايولف» من أخطار؛ إذ انطلقت السفينة حاملة إياه ومن معه من يافا بحذاء الساحل وليس في

(20)Saewulf, An Account of The Pilgrimage of Saewulf to Jerusalem and The Holy land, translated by: Brownlow M. A., London, 1892, pp. 8- 9.

وقد أشار النص إلى أسباب أخرى لموت الحجاج، لكنها أسباب طبيعية من حرارة الجو ونقص المياه أو الإفراط في شربها أحيانا.

(٢١) يوشع براور: الاستيطان الصليبي في فلسطين مملكة بيت المقدس، ترجمة: عبد الحافظ البنا، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط١، ٢٠٠١م، ص٢٣٩.

(٢٢) بل كل ما هو أوربي إذ لم يقتصر الهجوم على اللاتين، لكنه شمل الحجاج الأجانب بعامة؛ وهو ما يبرزه أحد الرحالة الروس. انظر: دانيال: رحلة حج راعي الدير الروسي دانيال في الأرض المقدسة، ترجمة: سهيل زكار، ضمن الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية، دار الفكر، دمشق، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م، مج٣١، جـ٣١، ص٣٠٣.

(23)Burchard of Mount Sion, A Description of The Holy Land, translated by: Stewart A., with geographical notes by: Conde C.R., London, 1896, p. 12.

عـرض البحـر أُسـوة برحلـة الذهـاب؛ ويعلِّـل النـص هـذا بالخـوف مـن خطـر مَثَّلـه أسـطول المسـلمين(٢٤)، بيـد أن الخطـر البحـري -عـلى مـا يبـدو- لم يكـن مُطَّـردًا مثـل سـابقه الـبري، يُعـزِّز هـذا عـدم الإشـارة إلى وجـود إسـلامي بحـري هـدَّد رحلـة ذهـاب «سـايولف» ومـن معـه؛ خصوصًـا في ظـل اتباعـه منهجًـا سرديًّـا عنـي بإيـراد التفاصيـل كاملـة فيـما يتصـل برحلتـي الذهـاب والعـودة. أمـا الخـوف مـن الأسـطول الإسـلامي فلعـل مـردَّه إلى سـماع الحُجـاج معلومـات عـن انطلاقـه فعـلًا، ولعلهـم رجَّحـوا أنـه سـيمضي في عـرض البحـر ومـن ثـم أرادوا تجنُّبـه؛ ففـي الظـروف الطبيعيـة يُفـترض للسـير بحـذاء السـاحل أن يكـون أخطـر إذ هـو يُعـرِّض السـفينة للمـرور بمـواني كانـت لا تـزال تحـت سُـلطة المسـلمين مثـل عـكا(٢٥)، إضافـة إلى صـور وصيـدا وغيرهـما، بـل ثمـة سـوابق قريبـة العهـد شـهدت هـلاك الحجـاج اللاتـين حـين قذفتهـم العواصـف إلى المـواني الإسـلامية(٢٦)؛ وهـو مـا يعنـي أن في السـير بجـوار السـاحل مـا يعكـس تفضيـل الحجـاج تجنُّـب خطـر أقـرب وأقـوى احتـمالًا عـلى آخـر أبعـد وأقـل إحداقًـا، وإن كان في السـبيلين خطـر عظيـم.

(24)Saewulf, op. cit., p. 27.

على ما يبدو فلم يكن بالإمكان تجنب الطريق البحري واتخاذ نظيره البري؛ ففي سنة 494هـ / 1101م صرح المؤرخ الصليبي "فوشيه" بأن الطريق البري كان مغلقا أمام الحجاج القادمين من أوربا؛ لذلك لم يكن لهم سوى الطريق البحري عبر يافا، وكانوا يأتون في سفن منفردة أو أسطول صغير مكون من ثلاث أو أربع سفن. انظر: فوشيه الشارتري: تاريخ الحملة إلى بيت المقدس، ترجمة: قاسم عبده قاسم، دار الشروق، ط١، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م، ص١٦٦.

(٥٢) أورد «سايولف" إشارة إلى نزول الحجاج بعكا، ومنها كانوا يتوجهون إلى طبرية.

Saewulf, op. cit., p. 26.

ولعل هذه الإشارة ترتبط بالحجاج الذين طالما كانوا يفدون على الأرض المقدسة قبل اندلاع الحروب الصليبية، ويبدو أن هذا هو الأرجح في ظل أن المدن الإسلامية كانت تأسر من كان يسقط على سواحلها من الحجاج بعد وجود الصليبيين في الشرق، كما أن «سايولف" ومن معه لم ينزلوا بعكا بل نزلوا يافا. ثم كان أن تحول استقبال الحجاج من يافا إلى عكا حين خضعت للصليبيين سنة ٤٩٧هـ / ١١٠٤م.

(26)Albert of Aachen, History of The Journey to Jerusalem, edited and translated by: Edgington S. B., Oxford, 2007, pp. 659- 661.

ومع هذا فلم تأتِ الرياح بما اشتهته سفينة الحجاج؛ إذ أعلن «سايولف» تعرُّض سفينته لتهديد من قِبَل أسطول المسلمين، وذلك في المنطقة الواقعة بين حيفا وعكا. لقد ذكر أن الأسطول كان قادمًا من صور وصيدا ومتجِهًا نحو بابليون (في مصر) للمساعدة على محاربة ملك القدس (الصليبي)، وبرغم وجود سفينتين أخريين تحملان الحجاج سوى سفينة «سايولف»، إلا أنهما كانتا أخف حملًا مما ساعدهما على الهروب إلى قيسارية (الصليبية)، ويروي «سايولف» ملابسات الحدث، الذي لم يتمخض عن هجوم، بل انسحب الأسطول الإسلامي المكوَّن من ست وعشرين سفينة، برغم ما ذكره النص من ابتهاج المسلمين -أول الأمر- فرحًا بالغنائم المتوقَّعة؛ ويعزي «سايولف» هذا الانسحاب إلى أمرين؛ الأول مادي يتمثل فيما علِمه قائد الأسطول من قوة دفاعات سفينة الحجاج عبر أحد البحارة الذي صعد إلى أعلى صارية سفينة القيادة، فعلم بوجود مائتي رجل على متن السفينة الأوربية للدفاع عنها. أما السبب الآخر فهو رُوحي يكمن في رحمة الرب التي أنقذت الحجاج من الأعداء enemies (من أعداء نعمته/رحمته inimicis sui gratia)[٢٧].

ومع تحييد هذا السبب الديني يبقى السبب الأول بحاجة إلى المناقشة؛ إذ لا يُعقَل أن يخشى أسطولٌ بكامله سفينةً أوربيةً واحدةً مهما كانت عُدتها، ويمكن افتراض أن الأسطول الإسلامي-إن صحَّت الرواية- تراجع عن مهاجمة سفينة الحجاج بعدما هَمَّ بذلك؛ نظرا لأن هذا الأمر لم يكن من مهامه المكلَّف بها، خصوصًا بعدما ظهر أن الهجوم سيتكلَّف شيئًا من عناء المواجهة وإن كان محدودًا إلا أن الأمر برمته لا يستحق، كما أن السفينة كانت مُتجِهَة من الشرق

(27)Saewulfi, Relatio de Peregrinatione Saewulfi ad Hierosolymam et Terram Sanctam, London, 1892, p. 50; cf: Saewulf, op. cit., pp. 27, 28.

إلى أوربا وليس العكس؛ الأمر الذي ينفي توجهها لدعم للصليبيين، بل كانت -على ما يبدو من النص- تحمل جماعة من الحجاج السلميين المحميين بقليل من العتاد لا ينهض لأن يمثل جيشًا حربيًّا[٢٨].

ومن هنا يُرجَّح أن السلطات الإسلامية (الفاطمية) أرادت حشد قواها لمهاجمة الصليبيين انطلاقًا من مصر في إطار حرب صريحة لا مكان فيها لمهاجمة سفينة محمَّلة بحفنة من الحجاج العائدين إلى بلادهم[٢٩]؛ وبهذا يظهر أن المسلمين جميعًا لم يتخذوا موقفًا واحدًا من الحُجَّاج في كل الأحوال؛ فهناك من هاجم وهناك من أحجم عن الهجوم، وإن نظر النص إليهم جميعًا بوصفهم أعداء، وبوصفهم خطرًا داهمًا.

وربما أراد «سايولف» بهذه الرواية إظهار المسلمين -أعداء نعمة/رحمة الرب على حد وصف النص اللاتيني- في صورة الجبناء أمام رجال الإله، الذي يبارك في سلاحهم القليل؛ وفي ذلك إرضاء لفضول قارئ شغوف بمثل هذه الروايات التي تتوافق وتصوره لصراع مُستعر حديث العهد في الشرق، مع تهيئة الرواية للقبول العام فلو ضمَّنت أحداثَها اشتباكًا ثم انتصارًا لفئة قليلة على أخرى كثيرة لقويت مسوِّغات الشك فيها.

وفي سبعينيات القرن الميلادي نفسه ينتقل المسلمون من الهجوم -أو محاولة الهجوم- إلى مجرَّد التهديد والمراقبة؛ فالحُرَّاس من فِرَق الرهبان الفرسان الصليبية (الداوية والإسبتارية) صاروا يحرسون الحُجَّاج الذين يَرِدون نهر الأردن؛

---

(٨٢) وصل عدد سفن بعض الجيوش الصليبية أحيانًا إلى خمس وخمسين سفينة. انظر: فوشيه: السابق، ص٢١٥.

(٢٩) ذكر بعض المؤرخين أنه في ربيع سنة ١١٠٣م (٤٩٦هـ) حاصر بلدوين الأول ملك القدس (٤٩٤- ٥١٢هـ / ١١٠١-١١١٨م) مدينة عكا بمساعدة بعض السفن الإنجليزية، وكادت الحامية تستسلم لولا مجيء الأسطول الفاطمي من مصر، زيادة على عدد كبير من السفن من صور وصيدا تحمل الرجال والسلاح؛ مما أجبر الملك الصليبي على رفع الحصار، ويتوافق هذا التاريخ مع توقيت انطلاق سفينة "سايولف" من يافا (٩ شعبان ٤٩٦هـ / ١٧ مايو ١١٠٣م). انظر مثلا: Albert of Aachen, op. cit., p. 661.

مخافة تعرُّضهم للأذى على أيدي المسلمين، سواء أكان ذلك في أثناء ذهابهم أم إيابهم أم حين يقضون الليل هناك. يظهر هذا في رحلة حج «تيودريك» (٥٦٦-٥٦٩هـ/١١٧١- ١١٧٤م)، الذي يشير أيضًا إلى تَعَرُّض الحُجاج النازلين بأعداد ضخمة من فوق جبل القرنطل (الواقع قرب أريحا بفلسطين) إلى مراقبة الوثنيين (infidels/pagani) المُقيمين فوق جبال بلاد العربية الواقعة وراء الأردن[٣٠]. وعلى كل حال فقد أثار هذا قلقَ الحجاج وإن لم يعدُ الأمر-في تلك المَرَّة- أن يكون تهديدًا ومراقبة، برغم ارتفاع حِدَّة المقاومة الإسلامية المنظَّمة آنذاك.

وإذا كان من المحتمل أن تتطور المراقبة وأن يتحول التهديد إلى هجوم، فإن «تيودريك» لم يذكر شيئًا من ذلك؛ ربما بوحي ارتباطه بسرد تجربته الذاتية التي خلت من تعرُّضه للمهاجمة؛ ولعل هذا يعزى إلى كثرة أعداد الحجاج الذين معه ووجود الحُرَّاس، وهو ما من شأنه أن يُهمِّش-وربما يزيح تمامًا- هذا النمط من المقاومة الإسلامية، بَيْد أن ما يمكن تأكيده -في هذا الصدد وانطلاقًا من النص- هو أن الصليبيين أصبحوا أقدر على حماية حُجاجهم المسلمين الذين لا يجيدون استخدام السلاح (ظهر الداوية أساسًا لهذا الغرض[٣١]، كما صاروا أقوى على صعيد السيطرة على الطرق الرابطة بين المدن التي يحكمونها، وكلا الأمرين مما لم يكن متاحًا زمن «سايولف»؛ لاسيما أن الحُراس الذين تحدَّث عنهم الأخير تركَّزوا -على ما يبدو- في السفينة ولم يرافقوا الحجاج في تجوالهم، ولم تكن التنظيمات الدينية العسكرية -مثل الداوية- قد ظهرت بعْد، كما أن العديد من المدن المهمة لمَّا تكن قد دانت للصليبيين في ذلك الإبان[٣٢].

(30)Theodoricus, De Locis Sanctis, in itinera hierosolymitana crucesignatorum (I.H.C.), Sandoli, vol. 2, p. 360; cf: Theoderich, op. cit., pp. 46- 48.

(٣١) ميشيل بالار: السابق، ص١٣٢، ١٣٦.

(٣٢) أنشأ الصليبيون عددا من القلاع بالمنطقة للسيطرة عليها، وقد حَد هذا نسبيا من الخطر وإن لم يقض عليه تماما. انظر: يوشع براور: السابق، ص٣٨، ٣٩.

وبرغم هذا كله فقد افتقد الحجاجُ اللاتين الإحساسَ الكامل بالأمان التام حتى زمن رحلة «تيودريك»، خصوصًا في الطريق الواصل بين القدس وأريحا، كما يُفهَم من النص.

ولم يخلُ المشهد من رد فعل سلبي لَقِيه أولئك الحُجاج على يد المسلمين الذين سكنوا البلاد الخاضعة للحكم الصليبي. فبرغم مرور عقود على وجود الصليبيين في المنطقة واحتكاك المسلمين بهم على نحو دائم، إلا أن ما أورده «تيودريك» هنا ليشير إلى أن التعاشُر لم يورث المودة في ظل اختلاف الهُويات؛ إذ إن بعضًا من الفلاحين المسلمين الخاضعين لملك بيت المقدس الصليبي حين لقوا جماعة من الحجاج اللاتين في طريقهم إلى مدينة نابلس (الصليبية) أصدروا صَيْحات بَشِعة وصرخات مُخيفة؛ فأصيب الحُجاج بغير قليل من الخوف، وهي الصيحات التي اعتاد المسلمون استخدامها حين يشرعون في أداء أيٍّ من أعمالهم(٣٣).

أخيرًا تجدر الإشارة إلى أن الأسقف الألماني «بوركارد ستراسبورج» Burchardus Strasbourg الذي امتدت رحلته بين عامي (٥٧١- ٥٧٢هـ/١١٧٥- ١١٧٦م) وبرغم أنه لم يتحرَّك ضمن جَمْع من الناس؛ إذ لم يكن الحج هدفه الرئيس، وبرغم غلبة الأماكن الخاضعة للمسلمين على البلاد التي مرَّ بها، إلا أنه لم يسجِّل -في الجانب الديني من رحلته الذي زار فيه سيناء وصَيْدَنايا (قرب دمشق) والقدس بل في رحلته عمومًا بين مصر والشام- ما يفيد تعرُّضه لأي من أشكال التهديدات الإسلامية؛ ربما لكونه مبعوثًا رسميًّا من قِبَل الإمبراطور الألماني فردريك باربروسا (٥٤٧- ٥٨٦هـ/١١٥٢- ١١٩٠م) إلى السلطان الأيوبي صلاح الدين

(32) Theoderich, op. cit., p. 61.

ولعلها عبارات مثل: البسملة أو «الله أكبر» أو «لا إله إلا الله»، ومن المحتمل أن يكون مَرَدّ الرعب إلى طريقة أداء المسلمين لهذه الجمل.

(٥٦٧- ٥٨٩هـ/١١٧١- ١١٩٣م)، وربما لأن النص الذي خلَّفه لم يُعْنَ بذِكْر تفاصيل أداء صاحبه للشعائر الدينية.ثم كان أن حدثت جُملة من التغيُّرات السياسية مع العقود الأخيرة من القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي؛ أفضت إلى تغيير موازين القوة في المنطقة؛ إذ صارت الأرض المقدسة خاضعة -من جديد- لسُلطة المسلمين؛ الأمر الذي ألقى بظِلاله على مسارات الحجاج الأوربيين، وملابسات رحلاتهم؛ ومن ثم مواقف المسلمين منهم في القرن التالي (السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي).

مركز نماء للبحوث والدراسات
Namaa Center for Research and Studies
نماء وانتماء